أسباب وضع النحو

محاضرة للأستاذ المساعد الدكتور مهند مجيد برع

يمكن أن نردّ أسباب وضع النحو العربى إلى بواعث مختلفة ، منها الدينى ومنها غير الدينى ، أما البواعث الدينية فترجع إلى الحرص الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداء فصيحا سليما إلى أبعد حدود السلامة والفصاحة ، وخاصة بعد أن أخذ اللحن يشيع على الألسنة ، وكان قد أخذ فى الظهور منذ حياة الرسول صلى‌ الله‌ عليه‌ وسلم ، فقد روى بعض الرواة أنه سمع رجلا يلحن فى كلامه ، فقال : «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضلّ» ورووا أن أحد ولاة عمر بن الخطاب كتب إليه كتابا به بعض اللحن ، فكتب إليه عمر : «أن قنّع كاتبك سوطا». غير أن اللحن فى صدر الإسلام كان لا يزال قليلا بل نادرا ، وكلما تقدمنا منحدرين مع الزمن اتسع شيوعه على الألسنة ، وخاصة بعد تعرب الشعوب المغلوبة التى كانت تحتفظ ألسنتها بكثير من عاداتها اللغوية ، مما فسح للتحريف فى عربيتهم التى كانوا ينطقون بها ، كما فسح للحن وشيوعه. ونفس نازلة العرب فى الأمصار الإسلامية أخذت سلائقهم تضعف لبعدهم عن ينابيع اللغة الفصيحة ، حتى عند بلغائهم وخطبائهم المفوّهين ، ويكفى أن نضرب مثلا لذلك ما يروى عن الحجاج من أنه سأل يحيى بن يعمر هل يلحن فى بعض نطقه؟ وسؤاله ذاته يدلّ على ما استقر فى نفسه من أن اللحن أصبح بلاء عامّا ، وصارحه يحيى بأنه يلحن فى حرف من القرآن الكريم إذ كان يقرأ قوله عزوجل : (قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ)إلى قوله تعالى : (الصَّاحِبِ) بضم أحبّ والوجه أن تقرأ بالنصب خبرا لكان لا بالرفع. وإذا كان الحجاج وهو فى الذروة من الخطابة وللبيان والفصاحة والبلاغة يلحن فى حرف من القرآن ، فمن وراءه من العرب نازلة المدن الذين لا يرقون إلى منزلته البيانية كان لحنهم أكثر. وازداد اللحن فشوّا وانتشارا على ألسنة أبنائهم الذين لم ينشأوا فى البادية مثلهم ولا تغذّوا من ينابيعها الفصيحة ، إنما نشأوا فى الحاضرة واختلطوا بالأعاجم اختلاطا أدخل الضيم والوهن على ألسنتهم وفصاحتهم على نحو ما هو معروف عن الوليد بن عبد الملك وكثرة ما كان يجرى على لسانه من لحن. وكان كثيرون من أبناء العرب ولدوا لأمهات أجنبيات أو أعجميات ، فكانوا يتأثرون بهن فى نطقهن لبعض الحروف وفى تعبيرهن ببعض الأساليب الأعجمية. وكل ذلك جعل الحاجة تمسّ فى وضوح إلى وضع رسوم يعرف بها الصواب من الخطأ فى الكلام خشية دخول اللحن وشيوعه فى تلاوة آيات الذكر الحكيم.

وانضمت إلى ذلك بواعث أخرى ، بعضها قومى عربى ، يرجع إلى أن العرب يعتزّون بلغتهم اعتزازا شديدا ، وهو اعتزاز جعلهم يخشون عليها من الفساد حين امتزجوا بالأعاجم ، مما جعلهم يحرصون على رسم أوضاعها خوفا عليها من الفناء والذوبان فى اللغات الأعجمية. وبجانب ذلك كانت هناك بواعث اجتماعية ترجع إلى أن الشعوب المستعربة أحست الحاجة الشديدة لمن يرسم لها أوضاع العربية فى إعرابها وتصريفها حتى تتمثّلها تمثلا مستقيما ، وتتقن النطق بأساليبها نطقا سليما. وكل ذلك معناه أن بواعث متشابكة دفعت دفعا إلى التفكير فى وضع النحو ، ولا بد أن نضيف إلى ذلك رقى العقل العربى ونمو طاقته الذهنية نموا أعدّه للنهوض برصد الظواهر اللغوية وتسجيل الرسوم النحوية تسجيلا تطّرد فيه القواعد وتنتظم الأقيسة انتظاما يهيئ لنشوء علم النحو ووضع قوانينه الجامعة المشتقة من استقصاء الدقيق للعبارات والتراكيب الفصيحة ومن المعرفة التامة بخواصها وأوضاعها الإعرابية.

صنيع أبى الأسود  الدّؤليّ وتلاميذه

لما كانت العلوم فى الأمم لا تظهر فجأة ، بل تأخذ فى الظهور رويدا رويدا حتى تستوى على سوقها ، كان ذلك مدعاة فى كثير من الأمر لأن تغمض نشأة بعض العلوم وأن يختلط على الناس واضعوها المبكرون. وهذا نفسه ما حدث فيمن نسبت إليهم الخطوات الأولى فى وضع النحو العربى ، وفى ذلك يقول السيرافى : اختلف الناس فى أول من رسم النحو ، فقال قائلون : أبو الأسود الدؤلى ، وقيل : هو نصر  بن عاصم ، وقيل : بل هو عبد الرحمن  بن هرمز ، وأكثر الناس على أنه أبو الأسود الدؤلي.

وتضطرب الروايات فى وضع أبى الأسود للنحو ، فمنها ما يجعل ذلك من عمله وحده ، ومنها ما يصعد به إلى على بن أبى طالب ، إذ يروون عن أبى الأسود نفسه أنه دخل عليه وهو بالعراق فرآه مطرقا مفكرا ، فسأله فيم يفكر؟ فقال له : سمعت ببلدكم لحنا ، فأردت أن أصنع كتابا فى أصول العربية ، وأتاه بعد أيام فألقى إليه صحيفة فيها : «بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل» ثم قال له : «اعلم أن الأشياء ثلاثة ظاهر ، ومضمر ، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل العلماء فى معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر». ونمضى هذه الرواية فتذكر أن أبا الأسود جمع لعلىّ أشياء وعرضها عليه ، كان منها حروف النصب : إنّ وأن وليت ولعل وكأن ، ولم يذكر أبو الأسود : لكنّ ، فقال له على : لم تركتها؟ فقال : لم أحسبها منها ، فقال : بل هى منها ، فزدها فيها. ولهذه الرواية صور أخرى  تلتقى بها. ويقول القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة : «رأيت بمصر فى زمن الطلب بأيدى الوراقين جزءا فيه أبواب من النحو يجمعون على أنها مقدمة على بن أبى طالب التى أخذها عنه أبو الأسود الدّؤلى». فالمسألة لم تقف عند سطور أو بعض أبواب نحوية تذكر مجملة ، بل اتسعت لتصبح مقدمة أو رسالة صنّفها على بن أبى طالب ، وكأنه لم يكن مشغولا حين ذهب إلى العراق والكوفة بإعداد الجيوش لحرب معاوية ولا كان مشغولا بحروب الخوارج ، إنما كان مشغولا بالنحو ووضع رسومه وأصوله وفصوله. وطبائع الأشياء تنفى أن يكون قد وضع ذلك ، ونفس الرواية السالفة وما أشبهها من الروايات تحمل فى تضاعيفها ما يقطع بانتحالها لما يجرى فيها من تعريفات وتقسيمات منطقية لا يعقل أن تصدر عن على بن أبى طالب أو عن أحد من معاصريه ، ولعل الشيعة هم الذين نحلوه هذا الوضع القديم للنحو الذى لا يتفق في شيء وأولية هذا العلم ونشأته الأولى.

وقد تقف الروايات فى الواضع الأول للنحو عند أبى الأسود ، غير أنها تعود فتضطرب فى السبب الذى جعله يرسمه وفى حاكم البصرة موطنه الذى بعثه على هذا الرسم والأبواب الأولى التى رسمها فيه ، فمن قائل إنه سمع قارئا يقرأ الآية الكريمة : (أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) بكسر اللام فى رسوله ، فقال : ما ظننت أمر الناس يصل إلى هذا واستأذن زياد بن أبيه والى البصرة (٤٥ ـ ٥٣ ه‍) وقيل بل استأذن ابنه عبيد الله واليها من بعده (٥٥ ـ ٦٤ ه‍) فى أن يضع للناس رسم العربية. وقيل : بل وفد على زياد ، فقال له : إنى أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت ألسنتهم ، أفتأذن لى أن أضع للعرب كلاما يعرفون ـ أو يقيمون ـ به كلامهم. وقيل : بل إن رجلا لحن أمام زياد أو أمام ابنه عبيد الله ، فطلب زياد أو ابنه منه أن يرسم للناس العربية. وقيل إنه رسمها حين سمع ابنته تقول : ما أحسن السماء وهى لا تريد الاستفهام وإنما تريد التعجب ، فقال لها قولى : «ما أحسن السماء». وفى رواية أنه شكا فساد لسانها لابن أبى طالب ، فوضع له بعض أبواب النحو وقال له : انح هذا النحو ، ومن أجل ذلك سمّى العلم باسم النحو. ويقول بعض الرواة إنه وضع أبواب التعجب والفاعل والمفعول به وغير ذلك من الأبواب ، ويقول آخرون إنه وضع أبواب التعجب والاستفهام والعطف والنعت وإن وأخواتها. وقد يكون ذلك من صنع الشيعة ، وكأنهم رأوا أن يضيفوا النحو إلى شيعى قديم ، فارتفع به بعضهم إلى على بن أبى طالب ، ووقف به آخرون عند أبى الأسود صاحبه الذى كان يتشيع له ، ويظهر أن نحلهم إياه وضع النحو قديم ، إذ نجد ابن النديم يقول : إنه رأى عند بعض الوراقين أربعة أوراق عن أبى الأسود كتبها يحيى  بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩ للهجرة وفيها كلام فى الفاعل والمفعول. وأقدم من ذلك ما جاء عند ابن سلام إذ يقول : «كان أول من أسّس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلى ، وإنما قال ذلك حين اضطرب لسان العرب وغلبت السليقة وكان سراة الناس يلحنون ، فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم». وقد يشرك بعض الرواة معه فى هذا الصّنيع تلميذيه نصر بن عاصم وابن هرمز ، إذ يقول الزبيدى : «أول من أصّل النحو وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدّولى ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبوابا وأصّلوا له أصولا ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف».

وكل ذلك من عبث الرواة الوضّاعين المتزيّدين ، وهو عبث جاء من أن أبا الأسود نسب إليه حقّا أنه وضع العربية ، فظن بعض الرواة أنه وضع النحو ، وهو إنما وضع أول نقط يحرّر حركات أواخر الكلمات فى القرآن الكريم بأمر من زياد بن أبيه أو ابنه عبيد الله. وقد اتخذ لذلك كاتبا فطنا حاذقا من بنى عبد القيس ، وقال له : إذا رأيتنى قد فتحت شفتىّ بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وإن ضممت شفتىّ فانقط نقطة بين يدى الحرف ، وإن كسرت شفتىّ فاجعل النقطة من تحت الحرف ، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنّة (تنوينا) فاجعل مكان النقطة نقطتين. وابتدأ أبو الأسود المصحف حتى أتى على آخره ، بينما كان الكاتب يضع النقط بصبغ يخالف لونه لون المداد الذى كتبت به الآيات. وكان هذا الصنيع الخطير الذى سمّى باسم رسم العربية سببا فى أن يختلط الأمر فيما بعد على الرواة فتظن طائفة منهم أن أبا الأسود رسم النحو وشيئا من أبوابه ، وهو إنما رسم إعراب القرآن الكريم عن طريق نقط أواخر الكلمات فيه.

وحمل هذا الصنيع عن أبى الأسود تلاميذه من قرّاء الذكر الحكيم وفى مقدمتهم نصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ويحيى بن يعمر وعنبسة  الفيل وميمون  الأقرن ، فكل هؤلاء «نقطوا المصحف وأخذ عنهم النّقط وحفظ وضبط وقيّد وعمل به واتّبع فيه سنتهم واقتدى فيه بمذاهبهم»  وأضافوا إلى ذلك عملا جليلا هو اتخاذ نقط جديد للحروف المعجمة فى المصاحف تمييزا لها من الحروف المهملة ، فقد ذكر الرواة أن الحجاج فى ولايته على العراق (٧٤ ـ ٩٥ ه‍) أمر نصر بن عاصم أو يحيى بن يعمر بإعجام حروف المصحف لتمييز الحروف بعضها من بعض. ويروى أن ابن عاصم كان أول من عشّر المصاحف وخمّسها ، وبعبارة أخرى كان أول من قسم آيات المصحف أقساما.

وكل من ذكرناهم من تلاميذ أبى الأسود كانوا من قرّاء الذكر الحكيم ، وكان يؤخذ عنهم النقطان جميعا نقط الإعراب ونقط الإعجام. وكان ذلك عملا خطيرا حقّا ، فقد أحاطوا لفظ القرآن الكريم بسياج يمنع اللحن فيه ، مما جعل بعض القدماء يظن أنهم وضعوا قواعد الإعراب أو أطرافا منها ، وهم إنما رسموا فى دقة نقط الإعراب لا قواعده ، كما رسموا نقط الحروف المعجمة من مثل الباء والتاء والثاء والنون.